عهد خليفته خليل الذي لم يدم سوى أقل من سنة أظهر فيها تعسفاً ، وانغماساً باللهو والترف . فاندلعت حركات التمرد ، اذ ثار ابن عم السلطان خليل مراد بن جهانكير والي بغداد ، وحاول احتلال مدينة السلطانية ، الا انه اندحر امام قوات السلطان وقتل . والتف الامراء الناقمون على خليل حول أخيه يعقوب وأسندوا ثورته في ديار بكر ، فتشجع الامير يعقوب ، وتقدم بجيشه الى اذربيجان ، وعند نهر خوى اوقع هزيمة ساحقة بقوات السلطان وقتله واعلن نفسه سلطاناً في تبريز عام ٨٨٣ / ١٤٧٨ وظل يحكم حتى سنة ٨٩٦ / ١٤٩٠ وتمتعت الامارة خلال تلك الحقبة بشيء من الاستقرار .

وبوفاة يعقوب تجددت الاضطرابات ، وكثرت الحروب الاهلية بين مختلف الطامعين من السلالة الحاكمة ، وادى ذلك الى تفكك سلطة الآق قوينلو . وأصبح العراق اقليماً مهملاً من دولة مجزأة يتنافس فيها الطامعون لفرض سيطرتهم بالسلب تارة والقتل تارة اخرى . فقد خلف يعقوب ابنه بايسنقر وهو فتى في العاشرة من عمره ، فطمع الأمير رستم بن مقصود بالعرش ونجح في دحر بايسنقر ودخل العاصمة تبريز في ٨٩٧ / ١٤٩١ مجبراً السلطان على الفرار .

وتتابعت حركات التمرد والعصيان في عهد الغاصب الجديد ولم تنته الا بعد ان تمكن الامير أحمد من احفاد حسن الطويل من دحره وقتله في ٩٠٢ / ١٤٩٥ . واعلن احمد نفسه سلطاناً ، ولكن حكمه لم يدم أكثر من ستة أشهر قتل في نهايتها على ايدي الامراء الآخرين . وأعلن ثلاثة من الامراء في وقت واحد انفسهم سلاطين وكان العراق وبلاد فارس من حصة مراد وهو احد هؤلاء السلاطين الثلاثة .

من هذا الاستعراض السريع للمنازعات والحروب الاهلية التي عمت الامارة ، يتبين لنا ان العراق في هذا العهد مرّ بسلسلة من الاضطرابات كانت جزءاً من فوضى عامة سفكت خلالها دماء غزيرة ارضاء لجشع المتنافسين

وتسابقهم على السلطة ومحاولاتهم جمع وتكديس الاموال وصرفها على ملاذهم الخاصة ، ولم يكن احدهم اذا ما نجح مؤقتاً في الوثوب الى الحكم ، يفكر بالقيام بأي اصلاح كأن يحفر ترعة او يشيد قنطرة او يصون سداً أو يستصلح تربة او يرعى عالماً . تلك كانت بعيدة عن عقول هؤلاء الحكام الذين جاءوا في ظروف غير طبيعية ، عانى فيها العراقيون كثيراً ، وكتب عليهم ان يحيوا حقبا من الفزع والحروب الاهلية استنزفت خيرات البلاد . ولكل هذا فليس من الغريب ان نرى انهيار هذه الامارة على يد طامع جديد من سلالة اخرى هو اسماعيل الصفوي ، مؤسس الدولة الصفوية .

الصفويون

ينتمي الصفويون في الأساس الى اسرة تركمانية صوفية تنتسب الى الشيخ صفي الدين المتوفي عام ١٣٣٤م . واشتهر هذا الشيخ في اردبيل بطريقته الصوفية التي حققت نفوذاً واضحاً في انحاء اذربيجان . وتزايد نفوذ ومكانة هذه الاسرة ، فلم ترتح لها حكومة القره قوينلو واضطهدتها مما دفع رجال الاسرة الى الاحتماء لدى حسن الطويل زعيم الآق قوينلو . فلما قوض هذا دولة القره قوينلو ، ارتفع شأن رجال الاسرة الصفوية .

استغل اسماعيل بن حيدر الصفوي حالة الفوضى والتمزق في حكومة الآق قوينلو فقد هاجمهم ودمّر نخجوان ودخل تبريز في مطلع القرن السادس عشر حيث أعلن نفسه شاهاً . وخلال سنوات قليلة من استيلائه على اذربيجان ودخوله تبريز ، حقق سلسلة من الانتصارات مكنته من مد حكمه على ارجاء ايران .

اما سلطان القره قوينلو فقد توجه الى شيراز ومنها توجه الى بغداد محاولاً اعادة الحياة الى امارته المتداعية ، وحاول مصالحة الشاه اسماعيل

مكتبة احمد

ويعلق الاستاذ عباس العزاوي على ذلك بقوله : « ان الداعي لهذه الاعمال من تعمير مراقد الائمة (ع) وتخريب مشاهد الآخرين لايقصد به الا تفريق الامة العراقية واضعاف مقاومتها ، ولم يكن غرضه الحرمة الدينية والخير للامة » . ثم غادر الشاه بغداد ، وبعد ان ضم البصرة الى ممتلكاته ، سلك طريق تستر والحويزة حيث قضى على الامارة المشعشعية هناك ومد سيطرته على الأحواز كلها .

الصراع مع العثمانيين

ينتمي العثمانيون الأوائل الى أحد عشائر قبيلة الغز التركية ، تعرف باسم قايي ، هاجرت من المشرق الى الاناضول في القرن الثالث عشر للميلاد ، تحت ضغط تحرك المغول في اواسط آسيا . وتمكن عثمان (الذي ولد على حسب الروايات التاريخية سنة ١٢٥٨ ، أي سنة احتلال المغول بغداد) من تأسيس امارة قوية استظلت بدولة السلاجقة الروم أول الأمر ، وتوسعت على حساب الدولة البيزنطية وبسقوط دولة السلاجقة على يد المغول الايلخانيين ، تمكنت الامارة من استقطاب عدد من الامارات التركية المسلمة في الاناضول ، وهي الامارات الناشئة على انقاض دولة السلاجقة ، واستأنفت توسعها غرباً ليتحول، منذ سنة ١٣٤٥ ، الى اوربا الشرقية ، حيث استولت على اجزاء كبيرة منها ، ولم تنجح غزوات تيمورلنك المدمرة سنة ١٤٠٠م في القضاء على الدولة العثمانية ، رغم سيطرته على قسمها الآسيوي كله ، اذ سرعان ما استطاعت ان تعيد حكمها في هذا القسم ، وان تتوج أعمالها العسكرية ، في عهد محمد الفاتح ، بفتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣م ، وضم اجزاء اخرى من اوربا الشرقية . وما ان انتهى القرن الخامس عشر حتى كانت الدولة العثمانية تشمل الاناضول

واليونان وشبه جزيرة البلقان وجزائر بحر ايجه وجزيرة في جنوب ايطاليا .

وفي عهد سليم بن بايزيد (سليم الاول) ١٥١٢–١٥٢٠ اتخذت الدولة اخطر قراراتها حين استدارت لاول مرة منذ تأسيسها الى الشرق العربي . وقدر للعراق ان يتحول الى ميدان لصراع دموي بين السلالات الحاكمة في ايران والعثمانيين استمر بشكل متقطع حتى القرن التاسع عشر ، ذلك ان تقدم الصفويين نحو الغرب من ايران شكل بالنسبة الى السلطان العثماني خطراً لا يمكن تجاهله . كما ان اطماع الشاه اسماعيل التي لاتعرف الحدود، دفعته للعمل على مد سلطانه الى الاناضول وبلاد الشام من جهة ، والى الوقوف موقفاً متخاذلاً من التهديد البرتغالي المتسم بروح صليبية عارمة ضد العالم الاسلامي من جهة اخرى . وفي الوقت الذي كان فيه العثمانيون يركزون نشاطهم في شرقي اوربا والبلقان ، ويبذل المماليك ، في السنوات الاخيرة من عمر دولتهم ، محاولات مستميتة من اجل التصدي للخطر البرتغالي في البحر الأحمر والمحيط الهندي ، كان الشاه اسماعيل يسعى الى استغلال الاوضاع القائمة لتحقيق اطماعه متجاهلاً المصالح الاسلامية . فرسم سياسته التوسعية على اساس التحالف مع البرتغاليين في الخليج العربي ، والتنسيق مع القوى المعادية للدولة العثمانية ودولة المماليك في مصر والشام . وبعث بوفوده الى أوربا مفاوضاً ملوكها للتحالف ضد سلطان مصر واقتسام ممتلكاته ، على ان تكون مصر وفلسطين من نصيبهم ، بينما يستحوذ هو على بقية بلاد الشام ، وبذلك يطل على البحر المتوسط . وقد تزامنت مشاريع الشاه هذه مع سعيه الى انتزاع الاناضول وانهاء الدولة العثمانية . ادرك السلطان سليم الاول خطر الصفويين فتحرك لاجتثاث ذلك الخطر . وبعد ان قضى على انصار الصفويين في الاناضول